جامعة الانبار
كلية القانون والعلوم السياسية
قسم العلوم السياسية
فكر سياسي غربي حديث
المرحلة الثالثة
مدرس المادة: أ.م.د. مؤيد جبير محمود

الفصل الثاني، المبحث الثاني : الفكر السياسي لحركة الاصلاح الديني الغربي البروتستانتية

لقد أسهمت حركة الاصلاح الديني في تفنيد الكثير من الأفكار التي هيمنت على عقول مفكري الغرب وساسته وشعوبه طيلة العصور الوسطى، وهي نتيجة لم يكن رجال الحركة الاصلاحية يتوخوها بأي شكل من الأشكال، وربما لم يكونوا يتوقعها أصلا.

مضمون حركة الاصلاح الديني:

١-تبسيط العقيدة الدينية المسيحية بمجموعها مع التشديد على نظرية الخلاص (النجاة من النار)، واعتبارها الدعاة الاساسية لهذه العقيدة.

٢-نقد نظام الطقوس الدينية التي عرفته كنيسة العصور الوسطى وما رافقه من تسلسل مراتب الكهنة.

٣-تأكيد الطابع الفردي للايمان والخلاص، وعدهما علاقة مباشرة بين النفس وخالقها لأن الدين أمر شخصي داخل عميق.

وهذه الأفكار تعكس محاولة التوفيق بين متطلبات عالم العصور الوسطى القديم، ومتطلبات عصر النهضة الجديد التي استجابت له هذه الحركة بتأكيدها على الفردية وأهمية الانسان ودوره الفاعل ونقلها لهذه الافكار الى نطاق العقائد الدينية بالنظر الى الدين والخلاص الآخروي على أنها أمور شخصية ذاتية، تعبر عن العلاقة الشخصية المباشرة بين الفرد وخالقه.

وتتميز حركة الاصلاح الديني البروتستانتي عن غيرها من حركات الاصلاح بطرحها لمشروع القطيعة مع الكنيسة البابوية وهو المشروع الذي توفرت له فيما بعض الشروط اللازمة للنجاح، واضطلع بتأسيس هذه الحركة الاصلاحية وقيادتها فريقان: مارتن لوثر الالماني، وجون كالفن الفرنسي.

ترتبط بداية هذه الحركة بالخلاف الذي كان يثور في المانيا بين الفينة والاخرى حول موضوع الغفران ، خصوصا بعد ان سلكت الكنيسة طريق بيع الغفران الالهي

في شكل صكوك عرفت باسم صكوك الغفران التي كانت مصدرا مهما من مصادر دخل كبار رجال الدين.

عندما أعلن الكاهن الألماني مارتن لوثر في احدى الكنائس الصغيرة في المانيا عن استهجانه لبيع صكوك الغفران تسببت في حدوث اضطراب حاد وعام، وانخفاض حاد في نسبة بيع صكوك الغفران في ألمانيا، وبالتالي الارباح التي تجنيها الكنيسة، مما دفع بهذه الأخيرة الى تشكيل لجنة للتحقيق معه بشأن هذا الاستهجان، فكانت تلك بداية طريق لحركة الاصلاح الديني البروتستانتية.

أفكار مارتن لوثر الاصلاحية والسياسية:

١- أكد لوثر على الايمان والنجاة (الخلاص الآخروي) مسألة فردية، وان الانسان قادر على نيل هذا الخلاص بمجرد اعتقاده برسالة الانجيل التي بشرت بإله محب لطيف، يكون الايمان به هو الوسيلة الاولى والوحيدة للخلاص الانساني.

٢- ان غاية الكنيسة ومهمتها لاتعدو أن تكون غاية ومهمة تبشيرية خالصة تتمثل بالوعظ بالانجيل لايقاض الايمان اللازم والشامل دون الحاجة في ذلك الى الطقوس ولا الى الكهنة.

٣- ويكفي ان يتوج الانسان الى الله مباشرة ودون وساطة، فلا تعود هناك من حاجة الى الكاهن البابوي الذي سيصبح في هذه الحالة عقبة بين الانسان وربه كما يقول لوثر.

٤-كان لوثر يجهل حقيقة السلطة المدنية وطبيعتها ولايملك بخصوصها الا مفهوما جزئيا وربما في غاية الجزئية، وعلل هذا مايفسر الى حد كبير عدم استخدامه لتعبير الدولة الى نادرا، فقد كان يستعمل تعبير السلطة.

٥- وبسبب رؤيته المحدودة للسلطة فقد ارتبطت هذه الآخيرة فكرة وتطبيقا بالطاعة التي افترض ان تكون طاعة مطلقة عندما تكون السلطة قسرية مطلقة، ويمكن في ضوء ذلك القول ان لوثر كان من رواد الدولة المسيطرة، دولة السلطة والطاعة في الفكر الألماني، وهو تيار استمر حتى منتصف القرن العشرين.

٦- ان تمجيد لوثر للسلطة المدنية تكمن في اعتقاده بان نشر دعوته لن يكتب لها النجاح ما لم يتم الاستعانة بالامراء الذين يمثلون هذه السلطة.، ولكي يقدم ضمانة

لهؤلاء الأمراء قدم لهم أهم ضمانة ممكنة في هذا المجال، وهي دعوته للشعب لاطاعة السلطة المدنية وأمرائها وحظره أي عصيان او مقاومة لها.

أفكار كالفن الاصلاحية:

١-داخل الميدان الديني: تملك كالفن الاحساس بإرادة الله وسلطته المسيطرة ، وأعلن فساد الانسان وعجزه الكامل أمام قوة الله الساحقة إذ ليس للانسان في رأيه أي اختيار فيما يفعل بعد ان قدر الله كل شيء من قبل، فبإرادة الله سقط آدم بالخطيئة، وبإرادة الله حدث كل ما ترتب على تلك الخطيئة من نتائج.

٢-داخل الميدان الدنيوي: يتمتع الانسان في رأيه بنوع من الحرية لأنه سيد نفسه، فيه، بعد ان أعفاه كالفن من الطقوس المعقدة التي كان الكهنة يمارسون سطوتهم عليه بواسطتها.

٣-لقد كان هناك تشابه بينه وبين لوثر على مستوى العقيدة الدينية والفكر السياسي، لاسيما فيما يتعقل بطاعة السلطة التي يكون مصدرها الله، ومع الحرية المسيحية التي يمكن ان توجد مع وجود العبودية المدنية.

٤- ولكن أكثر أفكاره تختلف عن أفكار لوثر التي صاغها كالفن بمنهجية عالية اكتسبها من دراسته القانونية وهو ما يشهد عليه كتابه المؤسسة المسيحية.

٥-يرى ان للانسان طبيعة اجتماعية تجعله ميالا بطبعة الى تكون مجتمع والمحافظه عليه، والارتباط بشكل من الأشكال بقوانين يترتب عليها تنظيم اجتماعي وسياسي.

٦-أقام في جنيف المدينة السويسرية التي تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي (المدينة-الكنيسة) نوع من الدمج بين المجتمع السياسي والجماعة الدينية.

النتائج التي أدت اليها حركت الاصلاح الديني:

١-ساهمت بزيادة سلطة الملكيات الاوربية التي كانت قائمة حينها، وساعدت في دعمها.

٢-اصطفت الى جانب الطبقة البرجوازية، ووقف بالضد من ثورة الفلاحين، وهذا ما عزز من سلطة ونفوذ الطبقة البرجوازية الصاعدة.

٣-ساند المصلحون البروتستانت الامراء وباركو سلطتهم، ووقفوا معهم ضد سلطة البابا في روما، مما مهد لظهور لدولة القومية الموحدة.

٤- كما ان حركات الاصلاح قادت الى حروب دينية –مذهبية في أوربا.

الفكر السياسي لحركة الاصلاح الديني الغربي البروتستانتي:

تمخض الصراع الديني بين الكاثوليك والبروتستانت عن جملة من الأفكار السياسية التي توزعت بين تيارين أساسيين:

١-البروتستانت الفرنسيون المعروفون باسم (الهيكونوت)الذين كانوا في بادئ الأمر يميلون الى معارضة الملكيات ومقاومتها تحت اسم (المونارشوك).

٢-الكاثوليك الفرنسيون المعروفون بـ(الجزويت) الذي كانوا يميلون في بادئ الامر الى تأييد الملكية والدفاع عنها.

أفكار الهيكونوت السياسية:

١-من حيث النشأة والأصول الاجتماعية كانوا في الغالب من الطبقة الوسطى من التجار والحرفيين والمزارعيين.

٢- مواقفهم السياسية (المونارشوماك) كانت بسبب رفضهم للسلطة الملكية المطلقة، وتأييدهم حق مقاومة الملوك الطغاة والثورة عليهم استندا الى مجموعة من الحجج التاريخية والفلسفية والقانونية والدينية التي قدموها.

٣- الحجة التاريخية: وتفيد ان النظام الملكي بدعة ليس لها أساس تاريخي، ولا تطبيقات علمية مسبقة في العصور الوسطى.

٤-الحجة الفلسفية: وتفيد بان النظام الملكي المطلق يتعارض كل التعارض مع افتراض وجود القانون الطبيعي وراء كل نظام حكم.

٥- الحجة الدينية: وتفيد ان النظام الملكي المطلق يتعارض مع واجب الطاعة لله وحده فقط، فطاعة الخلق للخالق مطلقةوعامة وغير مشروطة، أما الملوك فيخضعون لمبادئ الكتاب المقدس والقانون الطبيعي القاضي في المساواة بين الناس.

الحجة القانونية: وتفيد بعدم شرعية اي سلوك او قرار يهضم حقوق الشعب.

الحجية السياسية : تفيد بتعارض هذه الانطمة مع هدف رخاء الانسان وضمان النظام الذي يتمسك بها كل نظام سياسي.

-أهم أفكارهم السياسية نجدها في كتاب (فرانكو-كاليا) لفرانسو هوتمان، وكتاب (دفاع ضد الطغيان) ١٥٧٩لكاتب مجهول، وكتاب (منبه/موقظ الفرنسيين وجيرانهم) ١٥٧٣-١٥٧٤لكاتب مجهول أيضا، وكتاب (عن حق الحكام على رعاياهم) لتيودور بييز ١٥٧٥، والذي أيد فيه أفكار هوتمان، وتراجع عن تأييد للسلطة المطلقة ليقرر شرعية مقاومة الهيكونوت للاضطهاد الذي يمارسه الملوك عليهم.

فرانسو هوتمان (١٥٢٤-١٥٩٠):

-عمل استاذا للقانون في عدة جامعات فرنسية، وشغل وظيفيتي مستشار ودبلوماسي، وتميز بقدرته على خوض المعارك الكلامية، أكثر من قدرته على وضع الصياغات النظرية. ومن أشهر كتبه فرانسو كتاب (فرانكو-كاليا) الذي سجل فيه تاريخ فرنسا الدستوري، ووفر مادة علمية ضخمة لخصوم السلطة الملكية المطلقة، ونشره عام ١٥٧٣ بعد عام واحد على مذبحة عيد القديس (سان بارتلمي) التي تعرض لها البروتستانت الفرنسيين على يد الكاثوليك الفرنسيين.

ويقوم الفكر السياسي للمونارشوماك على الأركان التالية:

١-الركن الأول: استنكار النظام الاستبدادي وحق مقاومة الطغيان:

حيث يرى هوتمان في كتابه فراكو-كاليا ان معارضة النظم الوراثية المكلية المطلقة ، لا تستند الى الحجج التاريخية السابقة فقط، بل وتستند الى حجتين تاريخيتين اخريين، هما نظام وراثة العرش،والذي هو نظام جديد ولايستند الى تقاليد تاريخية، مما الانتخاب هو النظام الصحيح في رأيه لتولي العرش، وان السلطة الملكية في

فرنسا خضعت ومنذ عهد قديم للمجالس الشعبية العامة التي كانت تمثل الأمة، لكن البرلمانات التي وقفت الى جانب الملوك حلت محلها تدريجيا المجالس العامة، واستحوذت على اختصاصاتا تباعا، مما سمح لاحقا باكتساب النظام الملكي طابعا مطلقا.

وأقر المونارشوماك من حيث المبدأ حق كل شخص في مقاومة الحاكم الذي يخرج عن القانون، واشترطوا أن يتولى مسؤولية التحرك ضد الاستبدا موظفو التاج الكبار او المجالس العامة للمملكة. وعليه فأن مقاومة الاستبداد عند المونارشوماك حق تنفرد به ارستقراطية الهيئات الوسطية، ولن تكون مقاومة الحكام الثانويين أو أوصياء الشعب للاستبداد مبررة الا بقدر ما يتصرف هؤلاء باعتبارهم هيئة ، سواء على صعيد المملكة ككل أو على صعيد الاقليم أو المدينة أو المحلة، طالما ان الهدف من تصرفهم اقامة الدين وحمايته.

النتائج:

-تميز أفكار المونارشوماك بطابع نضالي منحها قيمة نظرية وعملية على الرغم من من ضعف نتائجها الواقعية.

-تركت بصماتها ليس في فرنسا فحسب بل وفي انجلترا وهولندا أيضا بعد ان دفعت معتنيقها هناك للتمتع بالحرية والدفاع عنها باسم العقيدة الدينية.

-الأفكار السياسية للمونارشوماك حرصت على حماية الملاء النبلاء الذين لم ينسوا لا مخاطر الثورات الفلاحية في ألمانيا، ولا الدعوات الشيوعية الدينية التي انطلقت في اماكن عديدة من أوربا كدعوة توماس مور.

-انكروا حق الرجل العادي في المقاومة المباشرة، معلنين ان واجبه سلبي الى ان يتم استدعاؤه الى الميدان من قبل قادته الطبيعين (الامراء والنبلاء ونواب الحكومة الرسمية)، فهؤلاء وحدهم هم من يقررون متى تقوم الثورة المشروعة ، وان قامت فلا يجب ان تمس الملكية الخاصة والدين.

أفكار الجزويت السياسية:

غير الكاثوليك الفرنسيون (الجزويت) موقفهم متحولين من تأييد السلطة الملكية المطلقة الى معارضتها، مستندين في ذلك أفكار خصومهم الهيكونوت. وانشأوا لهذا

الغرض عصبة الدفاع عن الديانة الكاثوليكية عام ١٥٨٦، وبدأت هذه العصبة تضع أسس فكرية جديدة للعلاقة بين الشعب والملك، تحل فيها محل الفكرة القديمة عن الاخلاص المطلق للملك ، الى الاخلاص المشروط للملك، لتحل محلها فكرة جديدة اخرى هي الاخلاص المشوب بعدم الثقة والعداوة الصريحة للملك. وان البابا له الحق في ممارسة السلطة الروحية على المملكة، ولكن ليس له الحق في ممارسة السلطة السياسية او حق السيادة على الملك.

الدولة في فكر فرانسيسكو سواريز ١٥٤٨-١٦١٧:

١-مؤسسة انسانية تقوم لتلبية الحاجات المتعددة المتنوعة للناس.

٢-مؤسسة انسانية تنشأ عن اتحاد اختياري بين الأسر.

٣-يلتزم رئيس كل أسرة يشارك في هذا الاتحاد الاختياري بعمل ما يتطلبه الخير العام التي تسعى الدولة لتحقيقه .

٤- يترتب على هذا الاتحاد الاختياري نشوء المجتمع المدني الذي يمتلك سلطة طبيعية ضرورية للرقابة على اعضائه لحمايتهم وضمان الخير العام.

٥- وبهذا تكون فالدولة حالة زمنية ترتبط بالعالم المادي، وتتعلق بحاجات الانسان الاجتماعية، مما يعني افن فكرة سواريز عن المجتمع المدني لم تكن فكرة لاهوتية بأي معنى من المعاني.

٦-أفكاره ادت في النهاية الى نوع من الفصل بين السياسة والدين أعطى للجماعة الاجتماعية الحق في تغيير السلطة السياسية طالما هذه السلطة لاترتبط باي حق الهي مطلق ولا مقدس.

انبثق من مجرى الصدام بين الهيكونيت والجزويت في فرنسا مذهب جديد مستقل عن كليهما عرف بـ(السياسيين) :

أفكار مذهب السياسيين والنتائج المترتبة عليها:

١-تعود اصولهم الفكرية الى الجهد الذي بذله (ميشيل دو لوبيتال ١٥٠٥-١٥٧٣)، لتحقيق السلام واشاعة التسامح في فرنسا.

٢-كانوا واثقين من ان الوحدة الدينية امر مرغوب فيه بقدر ثقتهم في حق الدولة باستخدام القوة ان كان ذلك ضروريا للحفاظ على الوحدة القومية، مؤكدين في هذا السياق على عدم جواز المجتمع المدني في سبيل الضمير الديني.

٣-وبذلك فضلوا السلام أولا وقدموه على المصالح الدينية ، فالمهم عندهم فرنسا بوصفها أمة واحدة لا امتين تحكمها النزعات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت،

٤- وبذلك كان المطلوب عند السياسيين هو التسامح لضمان الوحدة القومية ومعاملة الافراد بوصفهم مواطنين بغض النظر عن اختلافاتهم وخلافاتهم وتنوع انتماءاتهم المذهبية والدينية .

كان انتصار هذا الرأي(رأي الاصلاح الديني) يعني:

١-انتصار الدولة الزمننية.

٢-حق الدولة الزمنية في التدخل للحيلولة دون حدوث أي تهديد.

٣-احترام السلوك الخاص بالفرد والجماعات ليكون هو الغاية الدنيوية التي اختارت الدولة خدمتها.

٤-ان المنفعة هي معيار استجابة الدولة للحقوق بما فيها حقوق التملك وليس مقياسها لا القوانين ولا النصوص المقدسة.

المصادر:

١- عبد الرضا الطعان، علي عباس مراد، عامر حسن فياض، ط١،موسوعة الفكر السياسي عبر العصور، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٥.
٢- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر النهضة، ج١، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٣- جان توشار، تاريخ الفكر السياسي، ط٢، ترجمة علي مقلد، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٣.
٤- كوينتن سكنر، أسس الفكر السياسي الحديث ، عصر الاصلاح الديني، ج٢، ط١، ترجمة حيدر حاج اسماعيل، المنظمة العربية للنشر، بيروت، ٢٠١٢.
٥- فرانسو شاتليه، تاريخ الايديولجيات-القرن ٧-١٩، ج٢، ترجمة انطون حمصي، وزارة الثقافة، سوريا، ١٩٩٧.

٦- ليو شتراوس، جوزيف كروسبي، تاريخ الفلسفة السياسية من جون لوك الى هيدجر، ج٢، ترجمة محمود احمد سيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥.